أيام الثقافة

يصدر كل يوم ثلاثاء

AL-AYYAM Tuesday 26/3/2019 Issue No.8379 Volume 24

الثلاثاء ٢٠١٩/٣/٢٦ الموافق ١٩ رجب ١٤٤٠ هـ العدد ٨٣٧٩ السنة الرابعة والعشرون

الأيام

«مشاة لا يعبرون الطريق» لعاطف أبو سيف ..
رحلة فلسطينيين ما بين عالمي «الحاضرين» و«الغائبين»!

كتبت بديعة زيدان:

تبدو المقادير مغايرة هذه المرة .. شيء من البوليسية بقالب كوميدي قد يكون أسودَ كحال الأوضاع في قطاع غزة، أو رمادياً كالدخان المنبعث من المنازل بعد كل عملية قصف، أو من الحرائق المرافقة لـ"مسيرات العودة"، مع شيء من الفنتازيا، وكثير من الإسقاطات والاستعادات التاريخية للجغرافيات والأحداث والشخوص، الذي غابت أسماء المحوريّين منهم، وحضرت أوصاف من يدورون في فلكهم، فيما حافظ "المخيم" على اسمه دون ملحقات، كما جرت العادة عند الروائي الفلسطيني عاطف أبو سيف، لتكون النتيجة بعد أن يضرب الكلمات في خلاطه، ويجعلها تنضج على نار هادئة، قبل أن يضمن استواءها في فرن السرد السلس، رواية تحمل اسم "مشاة لا يعبرون الطريق"، هي جديده الصادر عن دار الأهلية للنشر والتوزيع في عمّان.

حادث غامض يبدو كدهس شاحنة لثمانيني، لا يعرفه أحد، وليس له أقارب على ما يبدو، كما لم يحسم أي من الشهود حقيقة ما حدث معه بالفعل، لا "صاحب محل الفاكهة"، ولا "سائق التاكسي"، ولا "الفتاة العائدة من الجامعة" أو "طالبة الجامعة"، ولا "الشاب الذي كان يجلس على شرفته"، ولا حتى "الشرطي" غريب الأطوار، ولا "الصحافي"، ولا غيرهم في "عالم الحاضرين" .. وسط حالة من الشك المتبادل بين كل المتواجدين حول السرير، وحالة من التنافس للحصول على معلومة لتقديمها كسبق صحافي، أو تضمينها في تقرير أمني.

وهنا ينتقل الصحافي، وسط تشابك العلاقات في "عالم الحاضرين"، إلى حيث "عالم الغائبين"، فلا يجد بوصلة أمامه إلا الدراجة الهوائية التي كانت رفقة الثمانيني وقت الحادث، ومحفظته بنيّة اللون، والتي خلت إلا من صورة بالأبيض والأسود لفتاة لا يعرفها أي من أبطال "عالم الحاضرين" في الرواية، وليس هناك ما يشير إليها إلا سنة التصوير في العام ١٩٤٦.

"عالم الغائبين، هو العالم الذي عليه أن يقوم بصياغته، أن يخلق حكاياته. من المؤكد أن عالم الحاضرين حول السرير مليء بالقصص، فلكل شخص في الغرفة قصّته الخاصة، عالمه الحافل بالتفاصيل، أما البطل الحقيقي للتقرير، الذي عليه أن يبرزه، أي الرجل العجوز، فهو الغائب الأكبر في الحكاية. الحكاية والبطل توأمان عادة، لكن في هذه الحالة فثمة حكاية بطلها غائب. وعليه، وهذا استنتاج آخر للصحافي، فمهمته الكبرى يجب أن تكون خلق عالم خاص بالرجل العجوز: تخيّل حكايته الخاصة، وافتراض وجود هذا العالم وتلك الحكاية، وتأسيسهما وفق منظومة علاقات من الأشياء التي تتوفر في متن الحكاية القصيرة، وتأثيثها بكل ما تم العثور عليه على قارعة طريق الحكاية الصغيرة التي تمثلت في دهس الرجل العجوز، والافتراض القائم على حدوث جريمة وراء ذلك".

وعبر تخيّل الصحافي لعوالم الرجل العجوز ملاحقاً الصورة والدراجة الهوائية والمحفظة البنية، يعود بنا الروائي إلى فترة النكبة، وقت حدوثها وما قبلها وما بعيدها، وكيف كان يعيش هذا المسن رفقة عائلته، وحبيبته المفترضة صاحبة الصورة، أو "سلوى"، كما فضل تسميتها، بل وباتت مخطوبته، إلا أن النكبة فرقتهما، فتفرقوا بعيداً عن بلدتهم الأصلية، سواء داخل الوطن كما هو في غزة، أو خارجها كحال أخوته وباقي عائلته.

وفي إطار الحكاية المتخيلة للرجل العجوز، وتتواصل منذ ما قبل النكبة إلى وقت الحادث المفترض، يرفض هذا المسن الزواج، ويقرر مواصلة البحث عن حبيبه أو خطيبته سلوى في غزة، فيعمل ساعياً للبريد، مع أنه كان بإمكانه أن يعمل في وظيفة أفضل بعد أن أنهى "المترك" (شهادة كان يحصل عليها الطالب الفلسطيني بعد تجاوزه للصف التاسع)، وأكمل دراسته في القدس .. وفي خلال عملية البحث هذه، وفي خضم المبنى المتخيل للحكاية، يتلقى هذا المسن مجهول الهوية، في أحد مقاهي "المخيم" بالشاعر معين بسيسو ورفيقيه محمد حسيب القاضي وسعيد فلفل وآخرين، فكانت جلسة مشتركة بينهم، حيث "الغضب والشعر والحلم" كانت "تتقافز من الأفواه، فتحمل معها المزيد من الحنين، والمزيد من لهب الشوق، كما الحسرة"، حتى أن معين سأل المسن عن سلوى وما إذا وصلته رسائلها أو أي أخبار عنها أو منها.

وفي الرحلة المتخيلة للصحافي حول المسن الذي يرقد في السرير، ويحيط به أبطال "عالم الحاضرين"، تظهر الدراجة الهوائية كرفيقة درب له منذ أن كان ساعياً للبريد ويلتقي بأبطال "عالم الغائبين"، وهم كثر، وفي جغرافيات وأزمنة متعددة، فيما كان للمحفظة بنيّة اللون حكاية لها علاقة بذلك اللقاء الافتراضي ما بين المسن الذي لم يكن مسناً تماماً، ووالده، بعد أن فرقتهما النكبة، فكانت تلك المحفظة هديّة الأب إلى ابنه.

وما بين "عالم الغائبين" و"عالم الحاضرين" تنقلت الرواية بنا مع صفحاتها إلى ماض تمحور حول النكبة وتداعياتها، وحاضر في غزة حيث تجار الأنفاق، والمتلونين من أصحاب اللحى الجديدة، وما طرأ على الغزيين الجدد والقادمين إليها منذ عقود، من تحولات، حتى على مستوى الأحلام، فحلم العودة، وإن لم يسقط، نراه يستبدل بحلم السفر والهجرة من واقع بائس، أو بالحصول على تحويلة طبية إلى الضفة الغربية، أو اللحاق بعريس في تونس، فيما لم يغب الانقسام وتداعياته في الرواية أو عنها، هي التي تحدثت عن صراعات الفريقين الأبرز على الساحة الفلسطينية، وإن لم يسمهما صراحة، وبذلك يكون عاطف أبو سيف، وإن خرج على المألوف في جهة التقنية وأسلوب السرد والتناول، إلا أنه واصل سرد حكايات الماضي في بلاد ما قبل النكبة، والحاضر الصعب في غزة المنكوبة على أكثر من صعيد، كما في روايتيه السابقتين "حياة معلقة"، و"الحاجة كريستينا".

ويبدو أن الروائي هنا تعمد استخدام لغة سلسة في السرد تتماهى وطبيعة شخوص روايته "مشاة لا يعبرون الطريق"، كـ"سائق التاكسي"، و"صاحب محل الفاكهة"، وغيرهما، وهي لغة تكاد تقترب من الدارجة المحكية، وإن حافظت على رصانة فصحاها، وهي تتناول حكايات لفلسطينيين في عالمي "الغائبين" و"الحاضرين"، باتوا ليس فقط خارج جغرافياتهم الأصلية، بل خارج الزمن والحكاية ربما، ولذا فهم "مشاة لا يعبرون الطريق"، ما بين "نهاية محتملة" ومقدمة حول "الموت" الذي يبدو الصديق اللصيق بالكثير ممن كانوا أصحاب الأرض والحكاية.

"للموت طرق عدة كلها مفجعة. ليس من جدوى أن نفاضل بين واحدة وأخرى. تثير ضربات حوافره على الإسفلت دويّاً صارخاً يقلق مضاجعنا، وفي مرّات كثيرة يمر مرور البرق لا نكاد نتيقن من وقوعه إلا بعد أن يرحل من نحب، أو يدركوا أننا رحلنا.. غلالة الأرواح التي ذهبت قبلنا تحوم مثل ترانيم باهتة خلف النافذة. الجالسون حول السرير يقول بعضهم لبعض إنها سكرات الموت. الخروج من عالم والدخول في آخر، العبور غير المتيقن في الممرات الفاصلة بين عالمين مثل المشي على جسر رفيع من الحبال يربط جبلين شاهقين. من قاع الوادي تخرج الذكريات، تصعد الأرواح، تتدافع أسماء أولئك الذين سقطوا في دروب الحياة الموغلة في القدم. يطفو الحزن وتسمو لحظات الفرح، تمتزج المشاعر الرجراجة، وتسير الروح على الجسر الرفيع، تسقط تارة، ثم ترتفع وتواصل المسير (...)".

مهرجان رام الله للرقص المعاصر ٢٠١٩ .. «ع وين؟!»

كتب يوسف الشايب:

تنطلق الدورة الرابعة عشرة من مهرجان رام الله للرقص المعاصر، وتنظمه سرية رام الله الأولى، في الثالث من نيسان المقبل وحتى الحادي عشر منه، حاملة شعار "ع وين؟!".

وتأتي دورة المهرجان لهذا العام تحت شعار "ع وين؟!"، كسؤال يطرحه المهرجان حول مصيرنا ومستقبلنا الوطني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي؛ سؤال حول مستقبل الفنون بشكل عام، والرقص بشكل خاص، في ظل واقع سياسي واجتماعي واقتصادي صعبٍ وقاسٍ.

وتتضمن نسخة المهرجان لهذا العام تسعة عشر عرضاً لخمس عشرة فرقة، منها ثلاث فرق فلسطينية، وفرقتان عربيتان، وعشر فرق أجنبية، فيما تتوزع العروض على مدينتي رام الله، والقدس، إضافة إلى ملتقى الرقص الفلسطيني، ومؤتمر الرقص والمجتمع، ودورة الفيديو والرقص، وورش الرقص.

"ع وين؟!"

"ع وين؟!" .. ثيمةُ مهرجان رام الله للرقص المعاصر في دورته للعام ٢٠١٩، وهو السؤال اليومي الذي نسأله للمحيطين بنا، ويسألوننا إياه، وهو السؤال الذي يسألنا إياه جندي الاحتلال الإسرائيلي على الحواجز، والسؤال اليومي الذي نسأله لأنفسنا . "ع وين؟!" أصبح سؤالاً فلسطينياً بامتياز.

ولماذا سؤال "ع وين؟!" .. لأنه السؤال المرتبط بيومياتنا .. فهو ما نطرحه بسبب خوفنا من الطريق الذي سنسلكه؟ أو خوف من يسألوننا على سلامتنا في الطريق؟ أو رغبتهم في فرض سلطتهم علينا؟ علماً بأننا نعرف صعوبة طريقنا، ومن المفترض أننا متأكدون من أن هناك نور في آخر النفق.

"ع وين؟!"، وكما يؤكد القائمون على المهرجان، "لأننا نشك في خياراتنا، أو أن من يسألنا يشك في صحة قرارنا؟ .. حتى مهرجان رام الله للرقص المعاصر، مُعرِّض، وبشكل سنوي، للإجابة عن هذا السؤال: "ع وين" رايحين في المهرجان؟! وما هو جديدكم في هذا العام؟".

ع وين؟! شعار مهرجان رام الله للرقص المعاصر للعام ٢٠١٩ .. "ع وين؟!"، سؤال يطرحه المهرجان كي نبحث معاً عن الإجابة؛ سؤال حول مصيرنا ومستقبلنا الوطني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي؛ سؤال حول مستقبل الفنون بشكل عام، والرقص بشكل خاص، في ظل واقع سياسي واجتماعي واقتصادي صعبٍ وقاسٍ.

أما عما هو جديد، فهو السؤال الأصعب، فالاستمرارية تنعش الحياة وتجددها، وتخفف من حالة الإحباط. لكن كيف نأتي بالجديد ونحن نقضي ٩٠٪ من وقتنا في البحث عن مصدر للتمويل، وإقناع من حولنا بأهمية ما نقوم به، ونقضي ١٠٪ من وقتنا في البرمجة والبحث عما هو جديد؟

ملتقى الرقص الفلسطيني

ومع ذلك، فالجديد في المهرجان لهذا العام، ملتقى الرقص الفلسطيني؛ إذ ينظم المهرجان الملتقى الأول من نوعه في فلسطين، حيث تمت دعوة شخصيات بارزة من دول أجنبية وعربية يمثلون مهرجانات للرقص، ومنتجين، ومديري مدارس رقص، وغيرهم من الأشخاص المهتمين بمجال الرقص المعاصر.

وقال خالد عليان، مدير المهرجان لـ"أيام الثقافة": إن من بين ما يميز هذه الدورة تنظيم "ملتقى الرقص" للمرة الأولى، ويستضيف خمسة عشر ممثلاً لمهرجانات عربية وأجنبية، ومديري مسارح ومدارس رقص معروفين عالمياً، كمدير مسرح "سادلرز ويلز" في بريطانيا، ومديرة العلاقات الخارجية لفرقة أكرم خان، ومدير مهرجان "نمشي" في المغرب، ومديرة مهرجان "الرقص على الحافة" في هولندا، ومدير مهرجان المسرح الراقص في بولندا، وغيرهم، بحيث يلتقون فنانين وممثلي فرق ومسارح ومؤسسات فنية فلسطينية يقارب عددهم الخمسة وعشرين، ما من شأنه أن يمد جسور التواصل فيما بينهم، باتجاه التعريف بمنتجهم الفني، أو لجهة الخروج بشراكات وإنتاجات مشتركة.

ويهدف الملتقى إلى إفساح المجال أمام فرق الرقص الفلسطينية والراقصين والراقصات الفلسطينيين لعرض أفكارهم، وأعمالهم، ومشاريعهم المنتجة، أو التي سيتم إنتاجها للضيوف، والبحث في إمكانية التعاون واستضافتها في المهرجانات الدولية والعربية، أو المشاركة في الإنتاج، أو تأمين إقامة فنية للراقصين والراقصات والفرق الفلسطينية، لتطوير إنتاجاتهم، أو توفير فرص التدريب والتعليم.

مؤتمر الرقص والجديد

ومن جديد دورة هذا العام، أيضاً، فتح حوار حول الجسد في العالم العربي، حيث ينظم المهرجان، هذا العام، الدورة الثامنة من مؤتمر الرقص والمجتمع، ويطرح المؤتمر موضوع "الجسد في العالم العربي"، فهل تخلص الجسد كأداة تعبير من تابوهات المجتمع؟ وما هي إشكالية الجسد في عالمنا العربي؟ وكيف من الممكن لنا الجمع بين البعد الجمالي والبعد الاجتماعي لجسد الراقص؟ وما هي علاقتنا مع الجسد وكيف ننظر له؟

يشكل المؤتمر فرصة لفتح حوار حول مفهوم الجسد في العالم العربي بشكل عام، ومفهوم الجسد الراقص كلغة تعبير بشكل خاص، وبخاصة في ظل التغيرات التي يعيشها عالمنا العربي.

وبهذا، يشكل المؤتمر فرصة للراقصين والراقصات لفتح حوار حول مفهوم الجسد في العالم العربي بشكل عام، ومفهوم الجسد الراقص كلغة تعبير بشكل خاص، وبخاصة في ظل التغيرات التي يعيشها عالمنا العربي.

ويطرح المؤتمر أسئلة من قبيل: ما هي إشكالية الجسد في عالمنا العربي وإشكالية الجسد الراقص؟ وكيف من الممكن لنا الجمع بين البعد الجمالي والبعد الاجتماعي لجسد الراقص؟ وما هي علاقتنا مع الجسد؟ وكيف ننظر إليه؟

ويتضمن المهرجان في نسخته هذا العام، عروضاً في مسارح داخلية وساحات عامة لفرق من فرنسا، وأستراليا، وبريطانيا، واليونان، وسويسرا، وإستونيا، والنرويج، وتونس، وفلسطين.

دورة الفيديو والرقص

وينظم مهرجان رام الله للرقص المعاصر دورة تدريبية في الفيديو والرقص، بإشراف المخرج والمصور الألماني مايكل ماورينسن، وذلك خلال الفترة بين ٣٠ آذار و٦ نيسان ٢٠١٩. وتهدف الورشة إلى تعريف المشاركين والمشاركات على تقنيات الرقص مع التركيز على علاقة الرقص بالكاميرا، وسينتج عن الورشة إنتاج أفلام رقص قصيرة من قبل المشاركين والمشاركات وعرضها في المهرجان، وعبر وسائل التواصل الاجتماعي.

وسيتم العمل خلال الورشة على علاقة الجسد مع محيطه، والعمل الجماعي، والبحث في التكوين البصري، ومراحل إنتاج أفلام رقص بما يشمل بناء المفهوم، والتحضير، والإنتاج، ومرحلة ما بعد الإنتاج.

ومايكل ماورينسن من مواليد مدينة بروكسل، حيث بدأ دراسة الرقص فيها، ودرس الرقص، أيضاً، في مدينتي ميونخ وزيورخ. عمل مع العديد من الفرق ومصممي الرقص؛ منهم باليه نورنبرج، باليه فريبورج، مسرح مانهيم، أماندا ميلر، وليام فورسايت، كاي ديك، هيدتيو هيشيكي، مارتن سوندركامب، كيفن أودي، دومينيك دوميس، جورج ريشيل، ... وغيرهم.

يعمل مايكل في مجال التصميم الغرافيكي، والتصوير الفوتوغرافي والسينمائي، وفي العام ٢٠١٣ أكمل دراسته العليا في أكاديمية الفنون الإعلامية في كولونيا في مجال السينوغرافيا، وصناعة الأفلام الوثائقية. ويعمل، حالياً، على إخراج وإنتاج الأفلام، وأعمال الفيديو التجريبية، وينظم دورات الرقص عبر الفيديو، ويشارك في العديد من مشاريع الفنون البصرية.

ورش الرقص

يهدف المهرجان إلى تفعيل علاقات التعاون وتبادل الخبرات والتجارب ما بين الراقصين المحليين والراقصين العرب والأجانب، إضافة إلى تطوير قدرات الراقصين المحليين، وذلك من خلال تنظيم ورش عمل في الرقص تستهدف الراقصين المحليين.

وخلال دورة العام ٢٠١٩، سيتم تنظيم ورش الرقص بإشراف مدربين من فرنسا، وأستراليا، والمغرب، وبريطانيا، والنرويج، وسويسرا .. وتقام جميع ورش العمل في سرية رام الله الأولى.

عرض الافتتاح

وتفتتح فعاليات المهرجان فرقة "اكرو راب" الفرنسية التي يديرها مصمم الرقص الفرنسي والجزائري الأصل خضر عتو، بعرضها المميز "OPUS ١٤"، وذلك مساء الثالث من نيسان المقبل، في قصر رام الله الثقافي.

ويناقش العرض موضوع العالم الذي نعيش فيه، ووظيفة "الهيب هوب" في التعبير عن المهمّشين في المجتمع، وإعادة اكتشاف لغتهم غير المسموعة التي يعبرون من خلالها عن أنفسهم وعن عدم المساواة الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، وعن الاختلاف بين الثقافات المتعددة.

وقال عليان: عرض الافتتاح بحد ذاته حدث مميز، خاصة أن مهرجان رام الله للرقص المعاصر يسعى لاستضافة الفرقة منذ عشر سنوات، ونجح في ذلك أخيراً، علاوة على ما يحمله عرض الافتتاح من تميز على صعيد الشكل والمضمون.

وولد خضر عتو في منتصف سبعينيات القرن الماضي، وكان موهوباً منذ صغره في فن "الهيب هوب"، ومن خلال برنامج سيدني الفرنسي الشهير H.I.P, H.O.P، أصبح واحداً من أهم مصممي "الهيب هوب"، ومديراً للمركز الوطني "لاروشيل" لتصميم هذا النوع من الرقص، إضافة إلى كونه مديراً فنياً، فهو راقص ومصمم رقص في فرقة أكرو راب للرقص.

وكان عتو صرّح حول العرض بالقول: إن العالم الذي نعيش فيه عالم سيئ، ووظيفة الهيب هوب هي التعبير عن المهمشين في المجتمع، وإعادة اكتشاف لغتهم غير المسموعة التي يعبرون من خلالها عن أنفسهم وعن عدم المساواة الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، وعن الاختلاف بين الثقافات المتعددة.

ويتواصل المهرجان ..

ويقام مهرجان رام الله للرقص المعاصر ٢٠١٩، بالشراكة مع بلدية رام الله، وبدعم من وزارة الثقافة الفلسطينية، والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)، والمؤسسة الثقافية السويسرية – بروهلفتسيا، وشركة جوال، ومؤسسة عبد المحسن القطّان، وممثلية سويسرا، وشركة المشروبات الوطنية، ومؤسسة منى وباسم حشمة، وبالتعاون مع القنصلية الفرنسية العامة، والمجلس الثقافي البريطاني، والمسرح الوطني الفلسطيني، ومركز يبوس الثقافي.

ومهرجان رام الله للرقص المعاصر تنظمه سرية رام الله الأولى بشكل سنوي، وهو مهرجان فني متخصص في مجال الرقص المعاصر، وقد تم عقد الدورة الأولى للمهرجان في العام ٢٠٠٦.

وفي العام ٢٠٠٧، تم تأسيس شبكة مساحات للرقص المعاصر التي تضم في عضويتها، إضافة إلى سرية رام الله الأولى، كلاً من مسرح مقامات للرقص المعاصر في لبنان، وتجمع تنوين للرقص المسرحي في سورية، والمركز الوطني للثقافة والفنون الأدائية في الأردن، ومنذ العام ٢٠٠٧ يتم تنظيم مهرجانات الرقص المعاصر بشكل مشترك.

ويهدف المهرجان إلى تعزيز لغة الحوار والتبادل الثقافي بين الشعب الفلسطيني وشعوب العالم، وتعريف الجمهور الفلسطيني بأشكال متنوعة من الرقص المعاصر، وتطوير قدرات العاملين في مجال الرقص في فلسطين.

ويستهدف المهرجان الجمهور الفلسطيني بشكل عام، وقطاع الشباب بشكل خاص.. وقد حاز مهرجان رام الله للرقص المعاصر على جائزة القطان التقديرية للعمل الثقافي المميز للعام ٢٠٠٨، وجائزة مؤسسة التعاون للإنجاز للعام ٢٠١٤.

نقطة ضوء

السياسة بوصفها ترجمة لسوق العقارات (١-٢)

حسن خضر

لا يستدعي الأمر مهارة في التحليل للقول: إن اعتراف ترامب بسيادة إسرائيل على الجولان المُحتل، في جانب منه، يمثل دعماً لنتنياهو في معركة انتخابية حاسمة، بعد أسبوعين، وأن هذا الدعم وثيق الصلة برهان الاثنين على فترة ما بعد الانتخابات، وإعادة هندسة الخرائط، والتحالفات، والأسواق، في الشرق الأوسط، في إطار ما يُعرف "بصفقة القرن"، وأن هذا الدعم يضيف مزيداً من الحطب إلى حرائق الشرط الأوسط.

ومع ذلك، ثمة ما هو أبعد من الرهانات الشخصية للأوّل والثاني. وفي هذا المعنى نود التركيز على أمرين: أولاً، علاقة الفعل الترامبي بانتقال أميركا من طور إلى آخر، وانعكاس هذا وذاك على السلام والأمن الدوليين. وثانياً، رهان هندسة الخرائط والتحالفات، وتداعياته على حاضر إسرائيل ومستقبلها، وعلى الشرق الأوسط، عموماً.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالفعل الترامبي فإن نقطة البداية أن الإمبراطورية الأميركية صعدت إلى قمة العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وتزعّمت "العالم الحر"، ومارست دور الشرطي في مناطق مختلفة. وما يصدق على إمبراطوريات سبقت يصدق عليها، أيضاً. فما من إمبراطورية وُلدت إلا بالسيف، وما من إمبراطورية ماتت إلا به. ولكن حياة الإمبراطورية بين هذين الحدين لا تعتمد على السيف بل على السلام الإمبراطوري، الذي لا يتحقق إلا بالتوازنات والتسويات.

وبهذا المعنى كانت زعامة الولايات المتحدة "للعالم الحر" قصة نجاح مدهشة، خاصة في أوروبا الغربية، واليابان. ولكن النفط وإسرائيل في الشرق الأوسط، ورهاب الشيوعية في جنوب شرقي آسيا، عوامل أسهمت في عرقلة تعميم السلام الأميركي في هاتين المنطقتين. والمفارقة، في هذا الشأن، أن لحظة انتصار الإمبراطورية، بعد سقوط جدار برلين، كانت أيضاً لحظة فقدانها للبوصلة، فقد فشلت في إنشاء ما يستدعي عالم ما بعد الحرب الباردة من توازنات وتسويات. ودليل الفشل سلسلة حروب متلاحقة لم تتوقف حتى الآن. وفي يوم ما، ربما يُؤرَّخ لبداية الانهيار بلحظة هروب الأميركيين عن سطح السفارة في سايغون ١٩٧٥.

تُغرب شمس الإمبراطوريات، عموماً، عندما تتسع المساحة، وخطوط الإمداد، بين المركز و"المستعمرات" و"المحميات"، التي يستدعي الحفاظ عليها وجود حاميات كبيرة، وعندما تصبح ضرورة الحفاظ عليها أقل مردوداً وأكثر كلفة، وعندما يصبح العنف استراتيجية وحيدة لضمان السلام الإمبراطوري. وبهذا نُفسّر سلسلة الحروب المتلاحقة بعد الحرب الباردة، فقد كانت وما زالت، محاولة يائسة للحيلولة دون ما لاح من تباشير التدهور في الأفق.

والمُلاحظ رعونة متزايدة من جانب الأميركيين، بعد الحرب الباردة، إزاء الأمم المتحدة، والقانون الدولي، والشرعية الدولية، وحتى اليونسكو المسكينة. وبقدر ما يتعلّق الأمر بالعرب، مثلاً، غالباً ما امتزجت الرعونة بالاحتقار. وهذا قليل الأهمية إذا ما قورن بحقيقة أن الرعونة زعزعت أركان السلام الأميركي في أوروبا نفسها، وأن توازنات وتسويات ما بعد الحرب الثانية أصبحت معرّضة للانهيار. وفي هذا المعنى ترد مسألة الناتو، ومعاهدات الدفاع والحد من الأسلحة النووية، وقضايا التمويل، والتجارة، والمناخ..الخ.

وفي هذا المعنى، أيضاً، نُفسّر الترامبية بوصفها تعبيراً عن عجز المركز عن الإنفاق على المشروع الإمبراطوري، ومحاولة للتعويض بفرض "الخاوة" على العالم، إضافة إلى يأس من إمكانية إحلال سلام إمبراطوري، أو حتى جدوى التفكير فيه، في ما يبدو وقفة إمبراطورية أخيرة تسبق الانهيار.

ومع ذلك، لا ينبغي القفز إلى نتائج سريعة، والتفكير في أشياء من نوع أن الانهيار غداً، أو أن غياب ترامب عن المشهد سيغيّر الواقع الإمبراطوري بطريقة درامية. فالترامبية، بما هي جملة من التصوّرات والحلول والأوهام، سبقت ترامب، وستبقى بعده، لن تغادر المشهد السياسي الأميركي في وقت قريب. وليس صحيحاً أن ترامب، النرجسي الجاهل، هبط من كوكب آخر، فهو جزء من حقيقة أميركا، أيضاً.

ويبقى، في هذا الشأن، دلالة ينبغي ألا تغيب عن الذهن. فالإمبراطورية تصنع العالم على صورتها، وهي دائماً ذات "رسالة". هذا لا يعني أن الإمبراطوريات الرومانية، والعربية، والعثمانية، والروسية، والبريطانية، وغيرها، حاولت إنشاء نماذج مصغّرة للمركز في "المستعمرات" و"المحميات"، بل يعني أنها أنشأت دائماً رواية خاصة لتبرير قدرها المتجلي، وتفسير الهيمنة بمفردات ثقافية.

وفي سياق كهذا تموضعت حرية السوق، معطوفة على الديمقراطية الليبرالية، كنظام للحكم، في الرواية الأميركية لتفسير وتبرير الصعود إلى قمة العالم، ومحاربة الخصوم، أو تطويعهم، استناداً إلى قيم مُستمدة من أشياء كهذه. لذا، نفهم بشكل أفضل، وبأثر رجعي، لماذا احتلت مسألة حقوق الإنسان، والتعددية والديمقراطية، مكانة مركزية في خطاب الإمبراطورية الأميركية في زمن الحرب الباردة، مثلاً، كما نفهم لماذا نشأت الأمم المتحدة، وتبلورت ملامح ومركزية القانون الدولي والمعاهدات الدولية، وتحوّل مجلس الأمن إلى حارس للأمن في العالم.

ولعل في هذا ما يُعمّق من فهمنا للترامبية بوصفها ظاهرة تتجاوز الشخص نفسه، أيضاً. فالاعتراف بسيادة إسرائيل على الجولان، وبالقدس عاصمة لها، وكلتاهما محتلة في عرف الأمم المتحدة، ينتمي إلى، ويُعبّر عن، تحوّل وانتقال رواية الإمبراطورية عن نفسها وعن العالم، من طور إلى آخر.

الإمبراطورية في وقفتها الأخيرة: في زمن فرض "الخاوة"، وإحلال السلام الإمبراطوري بالإكراه، لا بالتسوية، لا تحتاج بضاعة الأمم المتحدة، والشرعية، ولا الديمقراطية وحقوق الإنسان. فالمخيال السياسي لأميركا الترامبية يتجلى في وهم واستيهام أن العالم بناية سكنية هائلة يستدعي التعامل معه ومع قاطنيه تجنّب بعض السكّان اتقاء لشرهم، وطرد البعض بالقوّة، أو تغيير عقد الإيجار، وفرض بدلات إيجار أعلى على البعض. والمفارقة أن مَنْ يفعل هذا تاجر عقارات، فعلاً، وأن السياسة بوصفها ترجمة لسوق العقارات لا تشكو ندرة المؤيدين، والمستثمرين، والسكّان الجدد.